الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية

شلبي شهرزاد
أستاذة مساعدة –قسم العلوم الإنسانية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر "بسكرة"
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
chelbichahrazed@gmail.com

بعد الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠، عمل الاستعمار الفرنسي على التوسع في المناطق الساحلية، وذلك بعد تمكنه من بسط نفوذه على المناطق التليه، برغم المقاومة الشديدة التي تعرض لها.[١] وما أن تمكن من مد جذوره بهذه المناطق، بدأت أنظاره تتجه صوب الجنوب، حيث ظلت المناطق الصحراوية وإلى غاية العهود الأولى من القرن ١٩ صعبة المنال بالنسبة له.[٢]

هذا ما يفسر إقدام فرنسا على القيام بالعديد من الرحلات الاستكشافية للمناطق الجنوبية، حيث أن الاهتمام الفرنسي بالصحراء كان قبل الغزو الفرنسي ويتضح ذلك من خلال تقارير الرحالة الأوروبيين.[٣] التي استفاد منها الضباط الفرنسيون في غزو الصحراء. وتعتبر رحلة روني كايي (١٨٢٤ – ١٨٢٨) Renie Caibe، من أوائل الرحلات التي قام بها المغامرون الفرنسيون بجنوب الجزائر[٤]، حيث أن الاهتمام الفرنسي بها كان من خلال نقطتين أساسيتين هما: أهميتها التجارية وثرائها الكبير، وهذا ما يفسر تمويل و اهتمام رجال الأعمال والساسة الفرنسيين بهذه الرحلات الاستكشافية، حيث نجد أن الضابط لآبي (Laphi) تمكن من وضع خريطة عامة للجزائر أبرز فيها تضاريس المنطقة الجنوبية التي اعتمد عليها قادة الاحتلال للتوسع في الصحراء. وكذلك قام الباحث أفزاك (Aveazac) سنة ١٨٣٦ بإنجاز دراسة جغرافية عن منطقة الصحراء وقد أثمرت هذه الدراسة بوضع خريطة وضحت عليها المعالم الرئيسية لهذه الأخيرة، خاصةً طرق المواصلات القديمة.[٥]

وفي سنة ١٨٤٥ قام المارشال سولت (Soulte) بتقديم تقرير إلى الملك يبين فيه الأهمية الإستراتيجية والتجارية من توسيع الاحتلال إلى الجنوب، جاء فيه "يجب أن تؤلف الصحراء الجزائرية أو بعبارة أخرى المناطق الواقعة بعد التلال، صنفا ثالثا من الجهات الإدارية، ففي هذه الجهات لا أثر للمعمرين ولا تطؤها الجيوش إلا بغرض قمع الفوضى، أو لإعداد ظروف ملائمة لإقامة العلاقات التجارية وتوسيعها ،وهي مناطق تفتح لنا المجال لطرق هامة في الحركة التجارية المؤمنة".[٦] كما ألف الضابط دوماس (Dumas) كتابا سنة ١٨٤٥، وذلك بتشجيع من المارشال بيجو(BUGEAUD) تحت عنوان الصحراء الجزائرية "Sahara Algérien" وهي دراسة عن الجنوب القسنطيني.[٧]

وقد أكدت القيادات الفرنسية في العديد من المرات على الأهمية الإستراتيجية التي تكتسبها الصحراء الجزائرية لإنجاح مشروعها التو سعي في إفريقيا، ومن ثمة عمدت إلى استمالة أعيان الصحراء قصد التعرف على إمكانياتها الاقتصادية والطبيعية والبشرية (من خلال دراسة بنياتها الاجتماعية، معرفة حقيقة أوضاعها الاقتصادية ودراسة الأوضاع الدينية وحتى النفسية، بهدف استغلالها بشكل جيد.)[٨]

والحقيقة أن الاهتمام الفرنسي زاد بعد نشر المهندس دوين شال (Duponchel) كتابه حول مد خط حديدي صحراوي لربط أوربا بإفريقيا، والذي شرع في التخطيط له بعد إصدار الكتاب.[٩] فقامت فرنسا بإرسال البعثات الاستكشافية، وأهمها بعثة فلاتير (Flatters)، والتي أكد من خلالها أن المعطيات الطبوغرافية للمنطقة مؤهلة لإقامة خط حديدي، إلا أن الحظ لم يحالف فلاتير لإكمال مشروعه ودراسته بعد أن قام الطوارق بقتله.[١٠]

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
شلبي شهرزاد، الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية.- دورية كان التاريخية.-العدد الحادي عشر؛ مارس ٢٠١١. ص٨٤ – ٨٥.
(www.historicalkan.co.nr)

في الربع الأخير من القرن ١٩ ، تبينت حاجة المستعمر الفرنسي للصحراء الجزائرية كنقطة إستراتيجية تربط بين إفريقيا وأوربا[١١] ، وقد وضح ذلك الجنرال ديغول خلال زيارته للجزائر في ديسمبر ١٩٥٨ حيث قال: "أن الصحراء هي أرض المستقبل وشريط بين عالمين ، عالم البحر المتوسط وعالم إفريقيا ، وبين المحيط الأطلسي وعالم النيل والبحر الأحمر"[١٢].

أما فيما يخص منطقة الزيبان ، فإن التواجد الفرنسي بها لم يكن وليد الصدفة ، بل كان نتيجة لجحافل البعثات الاستكشافية ، التي قام بها مجموعة من المختصين ، والذين استهواهم النشاط التجاري الكبير بها. وقد حظيت الدراسة باهتمام كبير ، حيث أن الهدف منها هو "إحداث تغيير جذري في الظروف الطبيعية والمناخية القاسية للصحراء ، فاتجهت أنظارهم إلى أحواض الجريد التونسي وأحواض بسكرة ، ووادي سوف ، وكان هدف الدراسة هو خلق بحر داخلي يمتد من هذه المناطق ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط ".[١٣] كما قال سانت جرمنت (St Germant) : "أنه ينبغي العمل وبفعالية لتنمية الأهمية التجارية لبسكرة وسيدي عقبة عن طريق الكفاح ضد كل تأثير على منطقة الوادي ،قصد جلب القوافل التجارية المعتادة عن طريق نفطه التونسية إلى قسنطينة".[١٤]

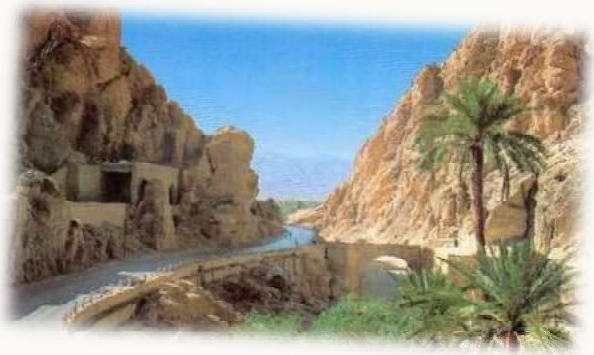

وبعد احتلال مدينة بسكرة في مارس ١٨٤٤ ، والتي كانت تعتبر مفتاح للتجارة الصحراوية بالنسبة للمقاطعة الشرقية ، شرعت السلطات الفرنسية بالسماح للقوافل التجارية بزيارة المنطقة ، وكانت أولى هذه القوافل هي قافلتي ١٣ جويلية ١٨٤٤ التي انطلقت من بسكرة نحو الجنوب. وفي سنة ١٨٤٨ سمح لقافلة غارسان (Garcin) زيارة بسكرة.[١٥] كما قام البرلمان الفرنسي سنة ١٨٤٤ بإصدار قانون يقضي بتوسيع نفوذ الاحتلال ، ومده إلى الجنوب وذلك عن طريق إنشاء مراكز عسكرية في المدن ، التي تعتبر مناطق هامة وإستراتيجية في المبادلات التجارية مثل: (سعيدة ، تيارت ، ثنية الحد ، بوغار ، بسكرة).[١٦]

وبهذا أصبح الهدف الاستعماري متمثلاً في مد نفوذه نحو الجنوب ، بواسطة العامل الاقتصادي والسياسي ، وتجنب التوسع عن طريق الحملات العسكرية الباهضة الثمن. كما أن الثورات الشعبية التي قامت في الشمال ، كانت سبباً في تحول المناطق الصحراوية والواحات إلى معاقل الثوار ، وهذا ما دفع بالمستعمر إلى التوغل في أعماق الصحراء ، حيث تولدت قناعة كبيرة لديه بضرورة احتلال الصحراء مثلما صرح به أوغستين(Augustin) "أن الهدف من التوسع في الصحراء هو تحقيق جملة من المكاسب أهمها حماية الوجود الفرنسي بقسنطينة من خطر الثائرين وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر والحصول على موارد رزق من الصحراء التي كانت مصدر ثراء".[١٧]

الهوامش

١ _ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية(١٨٣٠*١٩٠٠)، ج ١ ، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص ١٣٨.

٢ _أحمد المريوش:« التوسع الفرنسي في الجنوب الجزائري وردود فعل سكان الهقار١٩١٦»، المصادر ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر١٩٥٤ ، الجزائر ، ع ١١ ، ٢٠٠٥ ، ص ص ١١٤ ، ١١٥.

٣_ اعتماد على الدراسات القديمة (يونان ،رومان ،العرب) للصحراء فقد تم في سنة ١٧٨٨ تأسيس الجمعية الإفريقية Africa Association لجمع معلومات عن الصحراء قصد اكتشافها ، بدأت الرحلات وكانت أولها بقيادة بارك Park الإستكلندي.

٤_ يحيى بو عزيز:« اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها » ، الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ع خ ،١٩٧٩ ، ص ٤٨.

5 _ Bidichon : Projet d une exploration Politique commerciale Et Scientifique d Alger a Tambouctou par le Sahara, 1849, pp14-19

٦_ أندري برنيان ، أندري نوشي ، إيف لاكوست: الجزائر بين الماضي والحاضر ، ترجمة إسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،١٩٨٤ ، ص ص ٣٨٥،٣٨٤.

٧ _ أحميدة عميراوي: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ١٩٩٩ ، ص ص ٩٤ ، ٩٦.

٨_ يحيى بوعزيز: مرجع سابق ، ص ٤٨.

_9 Geneviève Desiré Vuillemin : «Les premiers projets du transsaharien et l Afrique du nord 1878*1881», R. H. M, n° 7-8, Tunis, 1977, pp110, 111.

10_ Geneviève Désiré Vuillemin :Ibid ,pp116,117.

١١_ يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٩ ، ص ص ٦٥ ، ٦٦ .

١٢_ أحمد مريوش: مرجع سابق ، ص١١٧.

١٣_ أن نجاح فرديناند بحفر قناة السويس ،هو العامل الذي شجع على القيام بهذه الدراسة ، أنظر:

يحيى بو عزيز:« اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر » ، مرجع سابق ، ص ٧٠.

١٤ _ صالح فركوس: صالح فركوس: إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر في ضوء شرق البلاد(١٨٤٤ *١٩٧١)، منشورات جامعة باجي مختار ، الجزائر ،٢٠٠٦ ، ص ٣٣٨.

١٥ _أحميدة عميراوي: من الملتقيات التاريخية الجزائرية ، ط ٢ ، دار الهدى ، الجزائر ،٢٠٠٧ ، ص ١٤٢.

١٦ _جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر ، الجزائر ١٩٩٤ ، ص ص ١٤١ ، ١٤٠.

١٧- أحميدة عميراوي: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص٩٧.